

دمشق أقدم مدينة في العالم

تحقيق أثري تاريخي

د. عفيف البهنسي

حدود مدينة دمشق اليوم تبتدىء من سفوح قاسيون حتى البادية يفصلها شريط أخضر يسمى (الغوطة) ، ويروي هذه المدينة نهر بردى (قرقر) بأقنيته التي توزعت على مصاطب المدينة من الغرب الى الشرق لتروي المدينة بجميع مناسيبها ، ولتروي الغوطة المحيطة بها ، ثم يصب ببحيرة الهيجانة في أقصى الغوطة . وأقدم ما ورد من حديث عن هذا النهر يعود الى الألف الأول قبل الميلاد (١) .

ولكن ليس من السهل وضع حدود ثابتة لمدينة دمشق قبل التاريخ ، ذلك أنه ليس من أثر لأي أسرار تساعدنا على ذلك .

هناك رأي سائد عند المؤرخين (٢) هو أن دمشق هي أقدم مدينة مازالت موجودة في العالم . ويرجح المؤرخ القديم يوسفوس تاريخ إنشائها الى عهد عز ابن ارام ابن سام ابن نوح ، وهو افتراض توراثي ، ولكن البحث الأثري لا يخضع لتاريخ الأنساب .

إن أقدم ما تؤكده الدراسات التاريخية ، إن دمشق في العهد الآرامي (الألف الأول قبل الميلاد) كانت متوضعة في شرقي المدينة . وأن المعبد الآرامي (معبد حدد) كان في موقع الجامع الأموي اليوم ، هذا الموقع الذي احتل مكان المعبد الروماني (معبد جوبيتر) (٣) .

والاله حدد راما ن هو إله الرعد والخصب ، ومن المعتقد أنه كان يعبد في هذا

المكان المقدس ، بدلالة العثور على لوح بازلتي (سنة ١٩٤٠) عليه نقش بارز يمثل أبا الهول ، لعله يعود الى القرن التاسع قبل الميلاد . وهذا اللوح محفوظ. في المتحف الوطني بدمشق .

لقد توقع الباحثون وجود آثار أرامية في منطقة (السماكة) قرب الباب الشرقي للمدينة ، ولكن لم تجر تنقيبات أثرية بعد هناك . على أن الآثار الرومانية لا تخفي نفسها^(٤) . ويرى سوفاجيه أن المنطقة التي تسمى البريص أي الحصن ، تحوي آثار قصر انطوخيوس الرابع الذي حكم دمشق في نهاية القرن الثاني ق.م ، بل انه يعتقد أن هذا القصر ، أنشئ على أنقاض قصر آرامي .

وهكذا فان المحور الأساسي للمدينة كان في ذلك الوقت وحتى العهد الروماني يمتد من القصر في تل السماكة وحتى المعبد في موقع الجامع الأموي . بيد أن الوثائق المكتوبة لم تتحدث عن مدينة دمشق في منتصف عصر البرونز ، وفي القرن التاسع والثامن قبل الميلاد ابتداء اسم دمشق بالظهور . ولكن هذا لا يعني أن دمشق ابتدأت منذ ذلك التاريخ ، إذ ورد اسمها (دامسكي) في وثائق ايبلا التي تعود الى عام ١٢٣٠ ق.م .

وثمة دراسات استقرائية تتم اليوم للبحث عن تاريخ دمشق قبل العهد الآرامي ، من خلال اسم آخر يعتقد أنه كان يطلق على هذه المدينة هو (آبوم)^(٥) .

لقد ورد اسم دمشق في ألواح تحوتمس الثالث ، فرعون مصر بلفظ ، تيماسك مع أسماء المدن التي احتلها ، ونقش ذلك على جدران معبد الكرنك في الأقصر (القرن ١٤ ق.م) . وورد هذا الاسم ذاته في ألواح تل العمارنة التي كانت ترد من دمشق ، لقد قرئت هكذا : دمشقا ، أو دومشقا أو تيماشكي . وفي حفريات كميد اللوز في لبنان ، عثر على رسالة موجهة الى ملك تامشقا واسمه (زالايا) . وفي التوراة ورد الاسم هكذا داميسيك ودوميسيك ودارميسيك وفي نصوص آشورية حديثة ورد الاسم ، دمشقا أو دمشقي أو دمشقو . وفي الكتابات الآرامية القديمة ورد الاسم كما نعرفه اليوم (دمشق)^(٦) وفي وثائق ايبلا ورد الاسم (دامسكي) كما يقول بيتسيناتو .

(إن هذا الاسم ، كما يبدو ، مؤلف من مقطعين الأول (دو) أو (دا) وهي تعني اسم الإشارة ذو أو ذا ، أو دار وتعني موقعاً حصيناً • والمقطع الثاني (ميسيك) وهي كما يبدو مشتقة من (سقي) كما يقول هوبت^(٧) وهكذا تعني التسمية دارميسيك الأرض المسقية •

ويرى أولبرايت^(٨) إن كلمة ميسيك هي أصل الكلمة العربية (الشق) وتعني الحجر الجصّي ، وأن التسمية دوشق تعني (ذو الحجر الجصّي) ، ويؤكد سوفاجيه هذا الرأي •

لقد أبانت الدراسات أن مملكة أبوم كانت قائمة في الألف الثاني قبل الميلاد ، وتلتها مملكة آرام في الألف الأول • ولقد ظهر اسم أبوم لأول مرة في وثائق سقاره في مصر ، وكان أولبرايت أول من حدد موقع أبوم في دمشق^(٩) • ولقد ظهر هذا الاسم أيضاً في ألواح تل العمارنة في شكلين (آ بي) و (أو بي) و (بي بي) كما ظهر في النصوص الحثية (آ بي) أو (آبا) • ويبرر هذه التحولات اللفظية ، اختلاف اللهجات والألسنة والقراءات ، ولكن أولبرايت يفضل استعمال اسم أبوم ويعني (القصب الكثيف) وهذا الاسم ينسجم مع هذا النبات المعروف في غوطة دمشق • •

وخلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد ، انتشر اسم (آرام) أو مملكة آرام وعاصمتها دمشق ، وتعني كلمة آرام (الأعالي) ، ولقد أطلق على مناطق أخرى مثل آرام صوبا وأرام بيت رحوب وأرام النهرين وهي ممالك آرامية ، ولكن اسم آرام كما ورد في النصوص يعني فقط دمشق • وعند الدلالة على جميع الممالك الآرامية فكان يطلق اسم (كل آرام) ، كما هو الأمر في لوح سفيره ، وعندما يطلق اسم ملك آرام فإن هذا يعني ملك دمشق كما ورد في نقش يعود إلى القرن التاسع ق • م •

ولم يستعمل الآشوريون كلمة دمشق ، بل استعملوا اسم (ايمرى شو) أو (شا ايمرى شو) أي مدينة الآله حددايمرى ، أو تعني دمشق باللهجة الآشورية •

لقد ورد اسم ايوم مقروناً بكلمة (الحك) وتعني حاكم ايوم ، (حك ايوم) وكان اسمه (آحوكباو) •

وهناك احتمال كبير أن مركز هذه المدينة هو تل الصالحية الذي أجريت فيه تنقيبات^(١٠) وتم العثور على آثار أسوار محيطه تعود الى منتصف عصر البرونز، ترتفع أكثر من ثلاثة أمتار وهي مبنية من الطين .

وتتمتاز الصالحية بموقعها المشرف على ضفاف فروع بردى وهي مركز استطلاعي هام يساعد على مراقبة المواصلات باتجاه تدمر وقطنه .

وحسب رأي العاملة الأثرية جارود أن دمشق تعود الى العصر الآشولي الحجري الذي يعود الى مئات ألوف السنين ، وكانت مأهولة جداً بالسكان ، وبخاصة في المرتفعات المحيطة بها وعلى شطآن نهر بردى والأعوج ، ذلك أن حوض دمشق ، كان بحيرة كبيرة كما تأكد للعالم فان ليره .

وفي الواقع ، لقد عثر عام ١٩٣٠ على بقايا عظام وظران تعود الى العصر الآشولي في موقعي وادي شركس والأشرفية . كما عثر على أدوات حجرية في حوض نهر بردى وفي برزه حول دمشق ، وهي تعود الى هذا العصر . كما عثر على أدوات تعود الى العصر اللافالوازي والموستري في المزة والهامة^(١١) وهي عصور حجرية قديمة تعود الى آلاف السنين .

على أن العصر الحجري الحديث الذي يبتدىء من الألف التاسع قبل الميلاد هو أكثر وضوحاً في مدينة دمشق وضواحيها . فلقد قام العالم دوكونتسانسون بالتعاون مع مديرية الآثار بإجراء تنقيبات وأبحاث بين عامي ١٩٦٠ - ١٩٧٥ في تلال محيطة بدمشق ، اثنان منهما في شرقي المدينة جنوبي بحيرة العتيبة وهما تل أسود ، وتل الغريفة ، وتل ثالث في غربي المدينة (طريق سعسع) هو تل الرماد ، وتعود هذه التلال الثلاثة الى بداية العصر الحجري الحديث أي الى الألف الثامن ق م . أو الألف السابع ق م .

لقد قدمت لنا مكتشفات تل أسود شواهد هامة رغم ضآلتها ، فلقد تبين شكل العمارة في العصر الحجري الحديث ، والمؤلفة من بيوت من القصب والأغصان والطين ، كما عثر على تماثيل طينية صغيرة لأشكال آدمية أو حيوانية ، وعلى عدد من الجماجم ، وثمة هيكل عظمي لطفل صغير .

وفي موقع الغريفة ، عثر عام ١٩٧٤ على آثار جدار مبني من الطين ، وتأكد أن المنشآت كانت مدعمة أيضاً بقضبان القصب ، وثمة إناء طيني وتماثيل أثبت الفحص بالفحم ١٤ ، أن هذا الموقع يعود الى منتصف الألف السابعة .

أما موقع تل الرماد ، فلقد استمرت التنقيبات فيه زمناً أطول بلغ عشر سنوات أي من عام ١٩٦٣ - ١٩٧٣ ، وفيه تم اكتشاف آثار مستوطن سكني ، وكانت المنازل بأبعاد ٣×٤ م ، وكانت الجدران مرفوعة من الطين المدكوك . كما عثر على أفران وعناصر أنشئت أيضاً من الطين وطلبت بالجبص . ومن أهم المكتشفات جماجم مطلية ومزخرفة بالجبص ، تشابه تلك التي عثر عليها في أريحا (فلسطين) ، وتمائيل طينية صغيرة ، وحوامل طينية للجماجم التي كانت تعرض في البيوت تكريماً لأصحابها ، وهذا يدل على سريان عادة عبادة الأجداد ، وعلى الأقل احترامهم وتكريهم ، كما عثر على أوان فخارية مصقولة ومحززة .

وتأكد للمكتشفين^(١٢) أن الإنسان القديم في هذا الموقع ، كان يمارس الزراعة ، فلقد عثر على حبوب متفحمة متنوعة . وكان يمارس القنص للحصول على اللحوم ، وكان يربي الحيوانات كالأبقار والماعز . ولقد عثر على أدوات حجرية على شكل فأس ومنجل وحربة سهم .

ويرجع تل الرماد - بحسب تحديد الفحم - الى منتصف الألف السابع أيضاً . وهذا يعني أن هذه التلال الثلاثة ، كانت تشكل مواقع سكنية متكاملة حول البحيرة ، مبنية من الطين المدكوك نظراً لندرة الحجر والصخور ، مما يجعلها مختلفة عن موقع أريحا المبني من الحجر والذي يعود الى زمن معاصر ، ومما يجعل هذا المستوطن الذي كان يشكل دمشق القديمة قديماً قدم أريحا ، ولكنه استمر مأهولاً حتى الألف الرابعة ق . م .

أما تل حزامي (ويقع حيث مطار دمشق اليوم) القريب من تل أسود فانه يعود الى الألف الرابعة ، وفيه عثر على آثار بيوت مستطيلة مبنية من الطين تضم عدداً من الغرف تنفتح الأبواب بينها .

وهذا يفسر تحول المدينة القديمة باتجاه موقع المدينة الحالية ولا ندري أين كان موقع مركز هذه المدينة وذلك بسبب التحولات التي تحدثها البحيرات وتشكيلاتها .

ولكن فان ليره ومن خلال كشوفه في تل الصالحية (في سفح جبل قاسيون) ،

وفي موقع الدرخبية على نهر الأعوج أكد استمرار وجود المدينة في بداية منتصف عصر البرونز ، ثم تضائل هذه المدينة في نهاية عصر البرونز . وذلك بسبب عدم إرواء غوطة دمشق إرواءً مستقراً . وفي منتصف عصر البرونز تحمل اسم دمشق اسم مملكة أبوم التي تحدثنا عنها وكانت مسورة تضم مواقع متعددة ، إذ كانت مدن أخرى قد أحيطت بالأسوار قبل ذلك العصر ، مثل ماري (تل الحريري - على الفرات) ومثل يمحاض (حلب) وقطنه (الشرفه - حمص) .

ومن المحتمل أن مركز هذه المملكة كان تل الصالحية المحاط بالأسوار كما ذكرناه . وكان هذا الموقع يسمح بربط مواقع أخرى مثل تل أسود والرماد والغريقه والتي تقع بين بحيرتي الهيجانة والعتيبة . هذه المواقع التي كانت ضواحي المدينة القديمة كما يبدو .

وهذا يعني أن دمشق اليوم كانت هي مركز هذه المملكة التي تحمل اسم أبوم أي الدغل أو القصب أو دغل القصب ، هذا النبات المنتشر في الغوطة .

ويتحدث العالم دوسان الذي نشر ألواح ماري ، عن ورود اسم أبوم في ألواح قصر زيميري ليم في ماري^(١٢) وعن ورود أسماء ملوكها (هيا يوم شار) و (زوزو شار معان) كما وردت كلمات (شارا بوم) و (أويل أبوم) وأويل ، وكلمة (شار) أو (أويل) تعني الملك أو الحاكم أو الرجل . كما عرفنا اسمين آخرين للملك أبوم هما أريوانا و زالايا .

ويظهر اسم دمشق كدلالة على مركز أبوم بشكل (تيمشك) و (تامسكو) في نقوش معبد آمون في الكرنك خلال عهد تحوتمس الثالث . ثم يظهر مرة ثانية في نقائش معبد طيبة خلال حكم امينوفيس الثالث . وفي رسائل تل العمارنة مقتطفات من معلومات تبين إن دمشق وأرض أو بي (أي أبوم) كانتا معاً تابعتين لمصر في عهد اخناتون .

وبعد عهد رمسيس الثالث (١١٦٦ ق م) استقلت دمشق عن أي تأثير مصري ، وبرزت إلى الوجود كشخصية دولية متميزة ثم انتشرت منها الثقافة واللغة الآرامية .

وأول ظهور للآراميين كان فيما ورد في نقوش طيبة عند ذكر الحرب بينهم وبين الآشوريين بقيادة الملك تغلات بلاصر (١١١٦ - ١٠٧٦ ق م) في منطقة الفرات الأعلى والأوسط .

ظهرت مملكة دمشق الآرامية في القرن الحادي عشر ق م ، ثم أصبحت المملكة الأكثر قوة في الشرق في منتصف القرن التاسع ق م وجابهت الآشوريين وصدهم وكانت تمتد حدودها من بحيرة قطينة شمالاً وحتى بحيرة طبرية جنوباً . ولقد ورد اسم دمشق - آرام لأول مرة في عهد شلمنصر الثالث (٨٥٣ ق م) الذي حاول الاستيلاء عليها ، وكان ملكها حداديداري الذي صد العدوان وجعل مملكته في قمة الازدهار . وتابع ذلك الملك حزائيل الذي استولى على الملك ودافع عن بلاده في معركة جلعاد (٨٤١ ق م) (١٤) .

لقد كان عصر حزائيل زاهراً ، بلغت دمشق ذروة قمتها ونفوذها ، ثم تراجعت في عهد بير حداد الثالث ثم في عهد الملك مرعي أي في الربع الثاني من القرن الثامن ق م . وفي عهد ملك آشور تغلات بلاصر الثالث (٧٤٥ - ٧٢٧ ق م) ثم الاستيلاء على الممالك الآرامية وعلى رأسها دمشق التي كانت تحت حكم الملك رصين (أوريدن) سنة ٧٣٢ منه وتمكن أحد العلماء (١٥) أن يستقرىء قطعاً من الألواح الآشورية التي تتحدث عن هذا الاستيلاء ليحدد أبعاد هذه المملكة ، مملكة دمشق فذكر مضمونها كما يلي « أناضمت الى آشور ، الأرض الواسعة التي تخص مملكة حزائيل والتي تمتد من مرتفع لبنان قريباً من مدينة جلعاد الى مدينة بيت ملكا والتي تقع عند حدود بيت عمري . ونصبت عليها حكماً وقادة » .

ولكن يبدو أن دمشق عادت الى الظهور فلقد ذكرت النصوص أن جلعاد أصبحت آخر حدود دمشق - آرام . وفي عام ٧٣٢ ق م تصبح دمشق عاصمة مقاطعة آشورية أطلق عليها (مرزبانه آسورا عربايا) .

ولا تزال آثار دمشق الآرامية مخفية تحت الأرض . ولقد استطاع العالم سوفاجيه . أن يتصور أبعاد هذه المدينة الآرامية التي تقع تحت المدينة الحالية . وضمن حدود السور . وكانت شوارعها مشابهة للوضع الراهن . ويعتقد أن معبد حدد الآرامي كان أول معبد يقع في مكان الجامع الأموي الكبير ، ويؤكد ذلك

العثور عام ١٩٦٥ على أحجار كبيرة تعود إلى العصر الآرامي وعلى تمثال بارز من البازلت يمثل أسداً مجنحاً يعتقد أنه يعود إلى العهد الآرامي ، وذلك لشبهه بالأسود والأشكال الحيوانية التي تزين السريير العاجي الملكي الخاص بالملك حزائيل ملك دمشق الآرامي والذي عثر عليه في (أرسلان طاش) قرب عين العرب في شمالي سورية ، وكان للمعبد مذبح شهير في اتقانه ودقة صنعه حاول تقليده الملوك الذين زاروا دمشق .

ومن المعتقد أيضاً أن القصر الملكي الآرامي يقع في تل السماكة الذي يرتفع عما حوله بمقدار خمسة عشر متراً . ولقد تحدثت الروايات التاريخية عن هذه القصر حيث اعتصم فيه ملك دمشق ضد غزوات الآشوريين وكان منيعاً ترف الزخرفة ولقد أوردت الوثائق التاريخية وصفاً لبعض التحف الغنية التي كان يحتويها مما غنمه ملك الآشور بعد حصاره دمشق عام ٨٠٥ ق م وما غنمه فرعون مصر تحوتمس الثالث الذي غزا دمشق .

والآراميون هم من العرب الشماليين يتكلمون اللغة العربية الشمالية التي تسمى اليوم السريانية ، وهي لهجة قديمة عاشت في وقت واحد من لهجتين أخريين واحدة في العراق وهي الكلدانية وأخرى في الساحل وهي الفينيقية . والآراميون هم سكان دمشق الأصليين الذين استقبلوا الفتح الإسلامي بالفرح والدعم تخلصاً من سلطة الروم . وما زالت أسماء القرى المجاورة لدمشق وأسماء الأنهار آرامية معرفة حتى اليوم .

وبعد انتصار الاسكندر المقدوني على دارا الثاني ملك الفرس وامتداد سلطانه على بلاد الشام ومنها دمشق ابتداء عهد الحضارة الكلاسية منذ عام ٣٣٢ ق م وحتى عام ٦٣٠ م .

ألف عام تقريباً ودمشق تعيش تحت السيطرة السياسية الاغريقية السلوقية ، والرومانية ، ثم البيزنطية ، ورغم قوة تأثير الثقافة الهلنستية ، فان دمشق وباقي المدن الشامية ، لم تفقد شخصيتها القومية الثقافية ، بل كان من رجالها قواد وشيوخ وحكماء وشعراء لعبوا دوراً في مراكز الامبراطورية الرومانية أو في الامبراطورية البيزنطية . ولم تكن دمشق عاصمة في ذلك الوقت ، إلا لمدة عدة ١١٤ - ٩٥ ق م في العهد السلوقي ثم تصبح في العهد الروماني أيام الامبراطور ديوقلسيان مركزاً لجيوش الرومان ، وأصبحت في عهد أدريان من

أمهات المدن • وحصلت على لقب ميتروبول أي مدينة رئيسية • وفي أيام الأسرة السورية من عائلة سيفيروس حصلت على لقب مستعمرة رومانية مما أكسبها بعض الامتيازات •

وكانت دمشق إحدى المدن العشرة (الديكابوليس) الأكثر أهمية في العالم الروماني ، ومن آثار دمشق في العهد الروماني ، معبد جوبيتر الذي ما زالت آثاره واضحة حول الجامع الأموي الكبير ، وبعض أبواب دمشق وأجزاء من سورها ، وحسب تصور العالم سوفاجيه فان المدينة محاطة بسور مستطيل الشكل طوله ألف وخمسمائة متراً وعرضه سبعمائة وخمسون متراً تخترقه أبواب سبعة لكل باب اسم بحسب الكواكب السبعة ، ولقد أطلق عليها فيما بعد اسم الباب الشرقي وباب الجابية وباب كيسان (أو بوابة سان بول) والباب الصغير وباب توما وباب الجنين وكان في الغرب ، وباب الفراديس •

ويخترق المدينة من الباب الشرقي الى باب الجابية الغربي طريق مستقيم ، وإلى طرفيه أروقة محمولة على أعمدة كرونية جميلة ، وكانت المخازن التجارية موزعة على طول هذا الشارع ، الذي تم اكتشافه وتحديد أقسامه كما تم اكتشاف قوس النصر في منتصفه •

وفي شرقي المدينة يقع المعبد في مكان الجامع الأموي ، وكان من أشهر معابد العالم القديمة ، ولقد صمم ونفذ من قبل الدمشقيين ، وما زالت أسوار المعبد الخارجية والداخلية وبعض الأروقة واضحة حتى يومنا هذا •

وتقوم ساحة الآغورا شرقي المسجد فوق حي القيصرية اليوم (ساحة الدوامنة) أما قصر الحاكم فيقع جنوبي المعبد وإلى غربه المسرح ، وهي كلها مخفية تحت الأرض يدل عليها الشكل العمراني للمنطقة •

ولقد أنشئت في عهد الرومان - القنوات المائية وتسمى اليوم القنوات ، ويطلق على الحي والنهر المار عليها اسم القنوات •

وفي العهد البيزنطي حول هيكل معبد جوبيتر الى كنيسة القديس يوحنا المعمدان وذلك في أواخر القرن الرابع الميلادي ، كما نشأت كنيسة المصلبة في حي باب توما، وكنيسة القسلاط وكنيسة مريم في باب شرقي حيث تقوم الكنيسة

المريمية ، التي وصفها ابن جبير ، ومن الأديرة دير مرّان في سفح قاسيون ودير سمعان ودير النساء في منطقة الفراديس ، وتذكر المصادر وجود قصر هرقل أو قصر شمس الملوك . ووجود قصر جلق ذكره البلاذري ويقع في منتصف الشارع المستقيم . وفي عهد الغساسنة كان في دمشق قصر كبير هو البريس الذي تحدث عنه الشاعر حسان بن ثابت ، وكان العرب ينزلون فيه ضيوفاً على أمراء غسان .

استلم الأمويون الخلافة الاسلامية عام ٦٦١ م . وكان عليهم أن يجابهوا عالماً مهزوماً كان العرب قد انتصروا عليه . وأن يتجاوزوا مستواه الحضاري فيقفزوا بسرعة من ظروفهم البدائية التي كانوا عليها في الجزيرة العربية الى ظروف حضرية راقية . ولقد أثبت العرب من خلال تقدمهم أنهم أمة سريعة التطور والنمو ، شديدة الطموح واسعة المقدرة ، فلم يستريحوا ويقنعوا بالحياة الرخية التي كانت عليها بلاد الشام وسواد العراق ، بل أخذوا يظاهون الواقع بمنجزات أفضل ، ثم انطلقوا خارج هذه الحدود التي لم تكن سياستها وادارتها بالأمر السهل ، ومع ذلك استطاع معاوية أن يدير شؤون خلافة امتدت فشملت العراق والجزيرة والشام ومصر ، هذه الأمصار التي ما زال العرب اليوم ، وبعد أكثر من ألف ومائة سنة يطمحون الى إعادة وحدتها ، فوطد الحكم ووضع له مبادئ راسخة سار عليها من خلفه من قادة الغُرّ ، حتى إذا جاء عبد الملك بن مروان ٦٨٥ - ٧٠٥ م بلغت دولة الشام أوج عزاها ومجدها في عهده وعهد أبنائه الخلفاء الأربعة ، فقد وصلت الدولة الاسلامية في عهد الوليد وهشام أقصى اتساعها ، فامتدت من شواطئ الأطلسي وجبال البرته غرباً ، الى نهر الأندلس وتخوم الصين شرقاً (وهو اتساع قل أن تجد له مثيلاً في العصور القديمة ولم تبلغه في العصور الحديثة إلا الامبراطوريتان البريطانية والروسية) .

ولقد كان على خلفاء بني أمية الذين حكموا هذه الامبراطورية الواسعة التي تكونت خلال خمسين سنة من الدعوة المحمدية . ومن انطلاق العرب من جزيرتهم ، أن يعززوا سلطانهم في بلاد الشام ، فاقاموا المنشآت التي تدل على عظمة الحكم المسيطرة على هذه الرقعة الواسعة الأرجاء ، مثل مسجد قبة الصخرة في بيت المقدس الذي أنشاه عبد الملك بن مروان يحدوه في ذلك رغبة اقامة مسجد ضخم يليق بأهمية الاسلام وعظمة دولة العرب ويضاهي في بهائه وفخامته الكنائس التي كانت قائمة في سورية وفلسطين .

كذلك أراد الوليد بن عبد الملك (٧٠٥ - ٧١٥ م) أن يخص المسلمين بمسجد كبير في دمشق وهو الجامع الأموي ، الذي أصبح الأبدية الأكثر تعبيراً عن عظمة العرب وروعة الاسلام واتساع سلطانه .

كانت دمشق العاصمة في عهد الأمويين مؤلفة من أحياء وحارات تضم بيوتاً مغلقة يتوسطها فناء فيه حوض ماء ذو نافورة وفيه أشجار البرتقال والنارنج وأزهار الياسمين والورد ، وحول الفناء غرف ينفتح أمامها رواق في المنازل الكبرى .

وقد نظم الأمويون في دمشق طريقة إروائها من نهر بردى ، وما زال اسم يزيد بن معاوية مرتبطاً بأحد الأبنية وهي فرع من فروع بردى السبعة . ولكن مما لا شك فيه أن الخلفاء الأوائل الذين تربعوا على عرش هذه الامبراطورية الواسعة كانوا قد حملوا معهم عاداتهم البدوية وحنينهم الى الصحراء ، فكانت أكبر منازلهم وقصورهم تقع بعيداً عن العاصمة ، تأخذ أشكالاً بسيطة أو متطورة بحسب الظروف الجغرافية للمنطقة أو الظروف السياسية التي خضع لها الخليفة .

ويحدثنا المؤرخون عن السقايات الجارية وعدد منها ابن عساكر عشرين يرجع أكثرها الى العهد الأموي ، ولقدشيدت الحمامات والفنادق والقيساريات وهي أبنية تضم المهن بحسب اختصاصها .

وفي عهد الوليد أنشئت المشافي ودارالخيول وكان موقعها قرب قصر الخضراء . ولقد توسعت المدينة فنشأت مراكز سكنية عرفت باسم منازل القبائل ، والأرباض ، ومن المنازل : الشاغور والميدان وقصر حجاج وعاليه وقنوات واللؤلؤة الكبرى ، والصغرى ، وصنعاء، والنيربان ، وبيت لهيا ، وبيت أبيات وأرزه ومقرى وحمور تعلو والفردوس والسهم الأعلى والسهم الأدنى ، والشرف الأعلى والشرف الأدنى . هذه المناطق التي أصبح بعضها بساطين ، ثم لم تلبث أن أصبحت حديثاً ، أحياء جديدة معمورة تدخل في أقسام مدينة دمشق الحديثة .

وكان في طرفي المدينة ميدانان كبيران الحصى في الجنوب والمرج الأخضر في الغرب .

وأنشئ في دمشق منذ عهد عبد الملك دار للبريد ودار لضرب النقود
تسمى دار السكة وثكنات للجيش ودار للامارة .

وفي عهد الفاطميين مع ذلك كانت دمشق جنة الدنيا وكان بظاهر دمشق ، كما يقول
المهلبى البهنسى المتوفى عام ٩٩٠ للميلاد « وادي البنفسج تكسره نحو أربعة أميال ونهر
بردى يشقه والوادي كله مملوء بشجر السرو ، لا تصل الشمس الى أكثر أرضه . وأرضه
كلها بنفسج متشج بعضه ببعض في نهاية الحسن ، وبدمشق عدة من ألوان الورد فمنها
أصفر ابريز وأسود وسماقي وورد موجه للورقة لونان من خارجها وداخلها ، وليس
للزهر على وجه الأرض ببلد أكثر منه بدمشق » .

وثمة دار لعبد العزيز بن مروان وابنه الخليفة عمر ، كانت قائمة مكان
بناء المدرسة الشميساطية لصق الجدار الشمالي للمسجد الكبير . وقصر لهشام في
مكان المدرسة المجاهدية .

وتفقد دمشق أهميتها في العصر العباسي بعد أن تنقل العاصمة الى بغداد
وتعرضت المدينة للاهمال ، بل للدمار والحرائق عام ١٠٦٥ م .

وفي عهد الفاطميين تظهر بعض المنشآت التي ما تزال آثارها باقية منها
محراب جامع فلوس وضريح السيدة فاطمة وضريح السيدة سكينة ، وزال
نهائياً قصر الولاة الذي أنشئ خارج الأسوار ، وكان كحصن للوالي وحاميته هدم
بعد أن قضى سكان دمشق على الأمير الفاطمي بدر الجمالي .

وتهفو قلوب الخلفاء العباسيين أحياناً الى دمشق . يقول ابن عساكر : « لم
يزل ملوك بني العباس تخف الى دمشق طلباً للصحة وحب المنظر ، أقام بها المأمون
وأجرى اليها قناة من نهر منين الى معسكره بدير مران وبني القمة في أعلى جبل
دير مران » .

وازداد نسيج مدينة دمشق العمراني تكاثفاً ، وظهرت الأحياء المستقلة
المكتفية بسوقها وجامعها وبابها تغلقها الحماية سكانها . وبقي السور متهدماً فيها
الى عهد نور الدين ، حيث تنفست دمشق الصعداء واتجهت اليها عناية
السلطة .

لقد كان نور الدين مصلحاً محباً للعمران فأنشأ كثيراً من المنشآت التي
ما تزال باقية حتى الآن ، مثل البيمارستان والمدرسة والحمام ودار الحديث

وأصلح السور والأبراج وفتح باب السلام وباب الفرج ، وخارج السور أنشأ قصر شمس الملوك وخانقاه الطواويس وخانقاه خاتون . وفي عهده ظهرت الصالحية صاحبة مستقلة ، أول من سكنها المقادسة المهاجرون دعاة المذهب الحنبلي . وفيها أنشئت مدارس ما زالت باقية كالجهاركسية والصالحية والشبلية والركنية والشامية ، التي أنشئت في العهد الأيوبي المتمم لعهد نور الدين .

كما ظهرت أرباض أخرى خارج السور كمنطقة حكر السماق (شارع النصر) وأنشئت مساجد في الصالحية كجامع الحنابلة والماردانية في السفح ، وجامع الجراح في الشاغور والتوبة في العقيبة والمصلى في الميدان ، وأنشئ في الصالحية بيمارستان القيمري .

وأهم المنشآت الأيوبية ، قلعة دمشق التي سنتوسع في الحديث عنها وعدد من المدارس ، العادلية الصغرى والعادلية الكبرى ، والباردائية والناصرية والقلجية والعزيزية والاقباليتان الحنفية الشافعية ، وكان في دمشق مئة حمام وأربعين داراً للوضوء وقيسارية مما تحدث عنه الرحالة في عهد صلاح الدين . ولقد بلغت دمشق أقصى توسعها في عهد المماليك ، الى أن جاء تيمورلنك وحل بها الخراب الكامل .

وكان في دمشق قصر السعادة الذي كان أولاً لنور الدين واتخذه المماليك مقراً لأمرائهم ، كما ازداد عدد المدارس في عهدهم ومنها دار الحديث التي بناها تنكز والمدرسة الخيضرية والمدرسة الجوهرية كما أنشئت الجوامع ومنها جامع هشام والقلعي . كما اتسعت الضواحي ونمت واتصلت بالأسوار فتتسع الصالحية وينشأ في سفحها محلتان الميطور وحمام النحاس والجسر الأبيض وأرزه . وفي شمالي السور تظهر محلة السبع أنابيب والأقصاب والعقيبة وتحت القلعة ، وفي الجنوب الشاغور وباب السريعة والشويكة والميدان .

ومن أهم المنشآت ، القصر الأبلق الذي أنشأه الملك الظاهر بيبرس ، (مكان التكية) وفي جنوب القصر ظهرت أحياء المنبيع والخلخال . وجامع الأمير تنكز (شارع النصر) وجامع الأمير يلغا (المرجة) وحوله ساحة مزدحمة بالنشاط

التجاري • كانت دمشق في ذلك الوقت من أجمل مدن العالم نظارة ونظافة ومن أكثرها نشاطاً وازدهاراً •

ولقد اقتدى العثمانيون الأوائل بالماليك في حب العمران فأنشأ السلطان سليم التكية لاطعام الفقراء في الصالحية والجامع وفيه ضريح الصوفي محي الدين بن عربي • كما أنشأ أبنة سليمان القانوني التكية والمدرسة المجاورة لها في مكان القصر الأيلق الظاهري ، وفي عام ١٥٧٤ شيد الوالي درويش باشا الجامع والمكتب والمدفن والسبيل هذه المجموعة المعروفة اليوم بالدرويشية كما أنشأ هذا الوالي سوقاً وفيه خان وحمام (سوق الحرير والقيشاني) ، كما أنشيء مسجد سنان آغا (١٥٦٢) وأنشأ مراد باشا مسجداً وتكية ١٥٦٨ •

وأنشأت الولاة من أسرة العظم كثيراً من المباني التي ما زال بعضها قائماً حتى الآن وبخاصة قصر العظم والخان ، والمدرسة ، وسوق الحميدية الشهير •

ولعل عهد الوالي ناظم باشا كان من أكثر العهود العثمانية ازدهاراً فلقد أنشأ في بداية هذا القرن القصر في المهاجرين ، المستشفى الوطني ودار المعلمين ، والسراي ودار البلدية والشرطة وجر مياه عين الفيحة الى دمشق ومد خط البرق الى المدينة المنورة وأقام النصب الضخم في ساحة المرجة وياشر بإنشاء سكة حديد تربط دمشق ببيروت من الغرب وبالبحر من الجنوب • وابتدأ في انارة دمشق بالكهرباء منذ عام ١٩٠٥ وسيرت الحافلات الكهربائية منذ ذلك الوقت من الجسر الأبيض الى الميدان • وبني ناظم باشا حي المهاجرين وسقف أسواق دمشق •

ومنذ ما بعد الاستقلال ١٩١٨ تبدأ دمشق بالانقسام الى مدينة قديمة ضمن الأسوار وحديثة تزداد التحاماً وانتظاماً خارج الأسوار ، ويبلغ التناقض أوجه بين المدينتين في أيامنا هذه •

★ ★ ★

□ الحواشي :

1 — S. Sauvaget 427-28 .

2 — F. Unger 1957. Porter 1855. Thubron 1969.

3 — Greenfield 1976, PP. 195-198.

4 — C. Watzinger and K. Watzinger 1921, PP. 44-46.

5 — J. Sauvaget.

6 — Porpola (1970) P. 103-4 .

7 — Hawpt (1909) P. 528.

8 — Albright (1961) PP. 46-53 .

9 — Albright (1941) PP. 34-35 .

10 — Van der Osten 1950, P. 37-39 .

١١- يعود العصر الآشوري الى العصر الجليدي الرابع والى مرحلة العصر الحجري المتوسطة ويعود العصر اللافاوازي الى نفس العصر وكذلك المستيري وكلها تعود الى مرحلة العصر الحجري المتوسط .

12— De Contenson (1975) P. 184 .

13— Dossin (1939) PP. 97-113 .

14— Thureau - Dangin (1931) PP. 16-61 .

١٥- عبدالهادي نصري ، شمس آرام شمس العرب ١٩٨٦ حلب .

□ مراجع البحث :

BIBLIOGRAPHY :

S. Sauvaget : Esquisse d'une histoire de la ville de Damas. Revue des etudes Islamiques, p. 427-28.

E. Unger : 1957 — Porter 1855 — Thubron 1969.

J. C. Greenfield : The Aramean God Roman IEJ 195-98.

C. Watzinger and K. Watzinger : Damaskus H. 4 Berlin 1921, p. 44-46.

S. Parpola : New Assyrians Toponyms. Neukichen Vluyn 1970, p. 103-4.

P. Haupt : Midian and Sinai ZDMG 1909, p. 528 .

W. F. Albright : A New Archaeological Intrepretation BASOR 1961, p. 46-53 .

W. F. : The Land of Damascus betwian 1950 and 1750 B.C. - BASOR 1941, p. 34.

D. A. E. Garrod : An Outline of Pleistocene Prehistory in Palestine — Lebanon — Syria; Quaternaria 6 - 6, 541 - 46.

H. De Contenson : Ghoraife et la cronologie du Neolithique Damascenien A.A.A.S, p. 18425.

G. P. Pettinato : The Archaive of Ebla - An Empire inscribed in ciy - Doubleday 1981, p. 226.

W. J. Van Lire : A Note on Five Early Neolithiq Sites in Inland Siria A.A.A. 13, p. 117-7 .

H. Von Der Osten : Tell es Salihieh - Lund : C. W. K. Gleerup 1066, p. 37-39.

G, Dossin : Les Archives economiques de Mari ! Syria 1939, p. 97-113.

W. Helk : Die Agiptische Verwaltung in den Syrischen Besitzungen - MDOG - 92 - 1960, p. 6-7 .

F. Thureau Dangin : Arslan Tash - Paris - P. Geuthner 1933, pp. 16-61 .

H. Tadmor : The thouthern Border of Aram - IEJ 12, p. 118 - 1962.

N. Ellisseeff : Dimashk : in Encyclopaedia of a Islam, pp. 277 - 8 - London - Luzac.

★ ★ ★